جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

الأخلاق بين التوريث والتعليم

دكتور/ مبروك عبد العزيز عبد السلام عبد الله

المدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات –
جامعة الأزهر - فرع المنصورة
الأستاذ المساعد بجامعة جازان بالسعودية

مستلة من
حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الثلاثون، لعام ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم 2011/6157

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

إهداء

إلى روح أبى الطاهرة " رحمه الله تعالى "

إن شاطئ المـوت يبـــدأ.....

من حيث يبدأ شاطئ الحياة.....

ولكن وشوقاه:.....

للمســة يد قـد اختفـــت.....

ورنة صوت قد سكنــت.....

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة والسلام على خاتم النبيين

المقدمة:

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه، وجعله فاتحة وحيه، ومنتهى شكره، وكفاء نعمته أحمده بجميع محامده على جميع نعمه وأصلى وأسلم على أفضل رسله، وأكرم خلقه، وعلى جميع أنبيائه ورسله.

وبعد:

أهمية البحث:

البحث يطالعنا منذ اللحظة الأولى بالغاية التي يتغياها فهو يعلن عن نفسه بوحي من العبارة –علم الأخلاق بين التوريث والتعليم– ولابد من الاعتراف المأساوي بأننا نقرأ عن حجج كل فريق – القائلون بالتوريث والقائلون بالتعليم – أكثر بكثير مما ننظر إلي موقف الفكر الإسلامي..... ومن هنا فقد تخلفت القيمة الأساسية في فهمنا لهذه الأدلة أو تقويمنا لها، لأننا نجتر هذا الفهم وهذه الأدلة من عقول الآخرين وأقلامهم، غابرين ومعاصرين والأخلاق بداهة ليست هوى أو أدلة عقلية فقط – لأن التبريرات العقلية سهلة – محظور علينا الاقتراب من أسوارها العالية. ولكن الأخلاق هي الفكر الحساس الذي يولد فينا ونولد فيه هكذا جدليا بلا انتهاء..... وعلي ضوء ما نمكن لهذه الجدلية – الأخلاق الفطرية والمكتسبة – من الاستمرار والتواصل يتجسد إمكان انتمائنا للأخلاق، وعلي قدر ما نعترض علي اندفاع الأخلاق الفطرية الحميدة فينا، ونمكن للقول بتوريث الرذيلة وعدم قابليتها للتغير يتجسد إمكان اقتلاعنا من الدين والانتماء للحقيقة.

من هنا تصبح مواجهة القضية – الأخلاق بين التوريث والتعليم – حتمية دينية وحتمية أخلاقية ويصبح حوارنا مع الآخر - الأخلاق تورث- عملية تواصل حقيقي لفهم مراده، ويصبح الإطلال علي القضية من خلال أعين الآخرين فقط جريمة فكرية فادحة..... وكذلك تصبح قراءتنا لهذا البحث من خلال أعيننا فقط جريمة أفدح لأن رسالة الإسلام عالمية.

ومن هنا كان بعض هم هذه الصفحات أو جله أحيانا، قراءة البعد الآخر في القضية – الأخلاق تورث- لكننا لاننزع في أدلتهم دائما إلي مجرد المتابعة أو التبعية وقراءة سطوح الأدلة دون نقدها وتمحيصها. ولما كان البحث العلمي مرهونا بأدلته وبإمكان تطبيقها علي أرض الواقع. لهذا سنحاول عرض أدلة كل فريق وسنحاول أيضا تأويل كل حجة تخدم الحقيقة تأويلا صوابيا كلما استطعنا، ونعتقد أننا في إبراز حقيقة أدلة كل فريق من الفرقاء في قضية بحثنا نقدم خدمة حقيقية للأخلاق

أسباب اختيار الموضوع:-

نعترف بأن مواجهة الأخر في القضية الأخلاق تورث وغير قابلة للتعديل مواجهة باهظة حملتنا علي اختيار الموضوع ولأن المصطلحات اللاأخلاقية واللامعقولة والإباحية قد وصلت في كثير من الأحيان إلي حد القول بها – الغاية تبرر الوسيلة، والأخلاق تكبل الحرية..... إلخ – لمحاربة القيم الأخلاقية بل ومحاولة القضاء عليها والتشكيك فيها باسم الفلسفة وباسم العلم – كالدارونية وغيرها - وأصبحنا نواجه بحشد هائل من أسماء شخوص وعبارات ونظريات تبطئ كثيرا أو قليلا من إيقاع اندفاع العالم إلي معانقة الفضيلة، ربما لأن هموم العصر الحديث تحاول بكل ما أوتيت من قوه تجاوز منطق الدين المعصوم الذي يحرم ويجرم التلكؤ البارد علي أعتاب الرذيلة. أو الولوغ الردئ في عرض الإباحية.

هذه الوضعية اللاأخلاقية والفوضوية والإباحية هي المعاناة الصعبة لنا من الفلسفة الغربية، ونحن تحت حتمية وسائل انتشارها الإعلامي نشعر بمعاناة الواقع ومعاناة التعبير عنه.

أما أدلة فلاسفة الآخر ونظرياته العلمية فتثير قضايا لا تلبث طويلا أمام الحقيقة الإسلامية كما سنرى من خلال عرضنا لموضوع بحثنا.

خطة البحث:

البحث يسير فى خط مستقيم حتى نهايته فقد جاء في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وفهرس.

الفصل الأول: الأخلاق

تعرضت فيه لبيان تعريف علم الأخلاق، وموضوعه وفائدته، ووجه الحاجة إليه، وتقسيمه إلي نظري وعملي.

الفصل الثاني: الخلق

وسارت فيه رياح الفكر إلى كيفية تكوين الخلق، وعوامل تكوينه، وقابلية الأخلاق للتغير.

الفصل الثالث: قابلية الأخلاق للتغير

الحركة الفكرية في هذا الفصل استدركت قصية قابلية الأخلاق للتغير وقدمت قضايا إيمانية تتعلق بمضمون التغيير.

الخاتمة: وقد ضمنتها أهم نتائج البحث.

منهجنا في البحث:

وقد اعتمدت في بحثي على أكثر من منهج:-

١) المنهج التاريخي:

الذي يقوم على التعرض لجذور القضية فعرفنا علم الأخلاق وحددنا موضوعه.

٢) المنهج التحليلى:

الذي يهدف إلى تحليل القضايا من أجل معرفتها.

٣) المنهج المقارن:

إذ عمدت إلى المقارنة بين الأفكار المتعارضة لبيان منطق العقل فيها.

٤) المنهج النقدي:

الذي يقوم على نقد الأفكار المخالفة للعقل والنقل لأننا نحكم وفي أيدينا الميزان – الوحي المعصوم.

٥) المنهج الاستنباطي:

الذي يعتمد على استنباط النتائج من المقدمات.

الفصل الأول

علــم الأخــلاق

أولاً: تعريفه.

ثانياً: موضوعه.

ثالثاً: فائدة علم الأخلاق ووجه الحاجة إليه.

رابعاً: تقسيم علم الأخلاق إلى نظري وعملي.

تعريف علم الأخلاق في اللغة

لا يساورنا شك في أن تحديد المعنى لأي كلمة يقتضيها البحث ضرورة لا غنى عنها في وضوح معناها وما دام البحث بعنوان "الأخلاق بين التوريث والتعليم" فنحن الآن بصدد تعريف الخلق، ومن الممكن الولوج من الخاص إلى العام أعنى من تعريف الخلق إلى تعريف الأخلاق لأن

(الأخلاق جمع خُلق ويراد بالخُلق: السجية، والطبع، والمروءة، والدين، وتخلق بغير خُلقه تكلفه .... وخالقهم عاشرهم بخلق حسن)([1])

يتراوح التعريف إذن بين تعريف الخُلق والأخلاق ويمكن أن نلحظ نقطة مهمة وهى كلمة خُلق، بضم الخاء واللام

وخَلْق: بفتح الخاء وسكون اللام

وعن معنى الخُلق والخَلْق يقول الراغب الأصفهاني (الخَلق: بفتح الخاء وسكون اللام، والخلق: بضمهما عبارتان ينعت بهم الإنسان ولكنهما وإن تقاربا في النطق فهما مختلفان في المدلول.

فالخَلق: يراد به الصورة الظاهرة التي تدرك بالحواس.

والخُلق: يراد به الصورة الباطنة التي لا تدركها الحواس والتي هي صورة النفس وقواها)([2]).

والحق يجب أن يقال: إنه لا شيء في الخارج – الخَلق – أو جمال الصورة – يمكن أن يصحح الحكم في الداخل – الخُلق – فالأخلاق الطيبة يمكن أن تزيل حجر العثرة الذي يمكن أن يقبح الخلقة – دمامة الصورة – لكن الخلق الطيب يمد له يد المساعدة، وهو قادر- الخُلق على الوفاء بعهده لأن دمامة الصورة لا تؤثر في فضل الإنسان وشرفه بل أكثر من ذلك أننا نرى أن الصورة الظاهرة مهما بلغت من جمال اللون وتقسيماته فلا تجمل في أعين الناس والخُلق أعوج لهذا جاء تحذير الرسول (ﷺ) من خضراء الدمن قال (ﷺ) (إياكم وخضراء الدمن)([3]) المرأة الحسناء فى المنبت السوء

ولا بد أن يلاحظ أنه على الرغم من جمال الصورة التي تأخذ بالأبصار فإن: **الخَلْق:** من عالم الأجساد والتراب.

والخُلق: من عالم الأرواح.

فالخُلق: تجريد من قيد المادة

وفى مقارنة موجزة سريعة عن معنى كلمة خُلق وخَلْق

يقول الإمام الغزالي (الخَلق، والخُلق: عبارتان مستعملتان معا، يقال: فلان حسن الخَلق والخُلق، أي حسن الظاهر والباطن .... فيراد بالخَلق: الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلق: الصورة الباطنة ..... ولكل واحدة منهما هيئة وصورة إما قبيحة، وإما جميلة والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمرها بإضافتها إليه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾([4]).

فنبه سبحانه وتعالى على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح منسوبة إلى رب العالمين)([5]).

ولعله مما يفيد القارئ ويضعه في الصورة – كما يقال – أن نذكر له أن الكلمة بالفتح لها عدة معان منها الخَلقْ: بفتح الخاء وسكون اللام: التقدير، ومنه قوله تعالى ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ ([6]) أي تقدرون.

---

(١) المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية ص ٢٠٩
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة تأليف/ الراغب الأصفهاني ص ٢٨
(٣) مسند الشهاب للقضاعي ٢/ ٩٦ (٩٥٧) بسند فيه ضعف.
- أمثال الحديث للزمهرمرى ص ١٢١ (٨٤)
- تلخيص المتشابه للخطيب البغدادي ٢ / ٥٠٩ (٣٠٩)
- الفردوس بمأثور الخطاب للديلمى ١ / ٣٨٢ (١٥٣٧)
خلاصة البدر المنير لابن الملقن ٢/ ١٧٩ (١٩٠٩١)
(٤) سورة ص آية ٧١-٧٢.
(٥) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٣ ص ٥٢.
(٦) سورة العنكبوت آية ١٧.

والخلق: الإبداع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (١)

وأما (الخُلُق: بضم الخاء واللام فمعناها في اللغة، الطبع والسجية والدين والعادة)(٢).

وها هنا فلنتمهل قليلا ولنتأمل قليلا حتى لا تضيع منا معنى هذه العبارات: الطبع – السجية – الدين – العادة – وأهميتها فيما نحن بصدد الحديث عنه

(فالطبع هو الجبلة التي خلق الإنسان عليها، أو الصفة الراسخة التي جبل عليها الإنسان دون إرادة منه)(٣).

والعادة: الصفة الراسخة المكتسبة بالإرادة عن طريق المران والتدريب

(**والسجية:** هي ما تشمل المطبوع والمكتسب الذي هو عادة وطبع....)(٤).

(والدين: هو ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من الأحكام، ويسمى ديناً لأننا ندين له وننقاد ويسمى أيضاً "ملة" من حيث أن الملك يمليه على الرسول (ﷺ) والرسول يمليه علينا، ويسمى شرعا وشريعة من حيث أن الله شرعه لنا أي بينه لنا على لسان النبي (ﷺ) والشارع الحقيقي هو الله تعالى على وجه الحقيقة والنبي (ﷺ) شارع مجازاً لأنه مبلغ عن الله تعالى، والمراد بالحقيقة والمجاز هنا: الحقيقة العقلية والمجاز العقلي)(٥).

والآن فلنضيق مجال القول وبدلا من أن نتحدث عن معنى الخَلْق والخُلُق في معاجم اللغة وأراء العلماء نحصر انتباهنا في ورود كلمة خُلُق في النصوص الشرعية فقد وردت كلمة الخُلُق في القرآن الكريم مفردة مرتين الأولى: في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٦)

(قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم وهو الإسلام)(٧)

الثانية: في قوله تعالى ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٨).

ولسنا في مجال تفصيل القول جوابا عن معنى الآية الكريمة ولكن تكفينا الإشارة السريعة الموجزة في قول صاحب الجلالين (هو الطبع والعادة)(٩) وبعد أن تعقبنا كلمة خُلُق في معاجم اللغة وفى النصوص الشرعية وصببنا الضوء على الفرق بين خَلْق وخُلُق لامناص من أن نقول: إن رغباتنا وعواطفنا وآمالنا جميعاً أن يحسن الله تعالى خلقنا وخلقتنا.

والآن ندير الحديث حول تعريف علم الأخلاق.

تعريف علم الأخلاق في الاصطلاح

لقد بات واضحا أن الخلق والأخلاق بمعنى واحد لأن كلمة أخلاق جمع لكلمة خُلُق. وإنه لمما يستوقف النظر عندي كثرة التعريفات لهذا العلم وسنذكر طرفا منها، وليس الذي يهمنا الآن هو اتفاقنا أو اختلافنا مع علماء هذا الفن في تحديد ماهية هذا العلم ولكن المهم هو أن نقف مع التعريف الذي نرتضيه، ونختاره مدافعين عنه سعداء به ومن بين هذه التعريفات تعريف علم الأخلاق بأنه:

أولاً: (علم الخير والشر)(١٠)

---

(١) سورة مريم آية ٩.
(٢) لسان العرب تأليف/ ابن منظور مادة خلق ص ١٠٧.
(٣) المعجم الفلسفي تأليف/ جميل صليبا صـ ١١٤، ١١٥.

(٤) الذريعة تأليف/ الأصفهاني صـ ١٣.
(٥) الملل والنحل تأليف/ الشهرستانى جـ١ ص ٤٤، ٤٥.

(٦) سورة القلم آية ٤.

(٧) تفسير البغوي ص ١٨٣.
(٨) سورة الشعراء آية ١٣٧.
(٩) تفسير الجلالين ص ٤١٥.
(١٠) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف/ منصور رجب ص ١٩.

والتعريف ملفت للنظر موجز وواضح ومستغرق لموضوعه، ويتفق مع قول المناطقة كلما زاد المفهوم قل الماصدق وكلما قل المفهوم زاد الماصدق. ومقصد علماء الأخلاق من ذلك – علم الخير والشر – أنه علم يميز بين الخير والشر ليسير الإنسان في طريق الخير ويبعد عن طريق الشر

ثانياً: قيل هو (علم الإنسان)([1])

وواضح أن اختفاء ما هو جيد في هذا التعريف راجع إلى كونه تعريفا يشمل كل العلوم

ثالثاً:. قيل هو (علم الواجب والواجبات)([2])

ومعنى التعريف في وضوح أنه علم يهدى الإنسان إلى ما يجب عليه عمله، وما يجب عليه تركه

رابعاً:. قيل هو (حال للنفس داعية لها إلى فعلها من غير فكر ولا روية)([3])

وجدير بالذكر هنا أن نوضح معنى قول علماء الأخلاق "من غير فكر ولا روية" والمعنى على حد تعبيرهم أن تصبح الأخلاق ملكة وخلقا

خامساً: وقيل هو (هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية)([4])

سادساً: وقيل هو (ملكة في النفس توجب سهولة صدور الأفعال الإرادية عنها بلا روية) ([5])

سابعاً: وقيل هو: علم يبحث في الفضائل وكيفية اكتسابها ليتحلى بها الإنسان، وفى الرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها الإنسان والإلمام بقواعد السلوك الإنساني، وبالمقياس الذي تقاس به أعمال الإنسان الإرادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر مع تحديد الجزاء لكل منهما)([6]).

التعريف المختار لعلم الأخلاق

التعريفات السابقة لعلم الأخلاق مسلم بصحتها، وتتسق مع المقدمات التي وضعت من أجلها، والغاية التي استنبطت لها وبالرغم من ذلك فإننا نميل إلى التعريف الأخير (علم يبحث في الفضائل وكيفية اكتسابها ..... الخ) لأننا نرى أنه تعريف بوجه عام ليكون الشارع علي بصيرة من العلم الذي يشرع في بحثه.

اعتراض على التعريف المختار والرد عليه

وقبل الاعتراض على التعريف المختار قد تسأل فتقول: أليس تعريف العلم – أي علم – في بدايته قبل الشروع فيه لا يجوز (لأننا لا نستطيع تعريف علم ما إلا بعد أن نقف على حقائقه ونلم بمسائلة، ونتعرف على موضوعاته ومباحثه؟ فالمكان الصحيح للتعريف إنما هو نهاية العلم لا بدايته لأن تعريف العلم أي علم ما هو إلا فرع من تصور ذلك العلم ومعرفته، ولا يتحقق ذلك إلا بعد الانتهاء من دراسة العلم، وليس قبل الشروع فيه)([7]).

والأمر ليس بحاجة إلى مزيد من الشرح لنتبين في وضوح أن (التعريف الصحيح يجب أن يدرك في نهاية العلم لا في بدايته)([8]).

وعليه فالاعتراض لا يختص بالعلم الذي بين أيدينا وحده، وإنما يشمل كل العلوم التي تصدّر بالتعريف وفى الرد على هذا الاعتراض يقول العلماء (التعريف الذي لا يصح أن يكون من مقدمات الشروع في العلم إنما هو التعريف "بالحد" لأنه يتطلب معرفة تفصيلية لا تتوفر إلا بعد الانتهاء من دراسة العلم والتعريف الذي معنا تعريف بالرسم لا بالحد والتعريف بالرسم جائز أن يكون في مقدمة العلم، لأنه لا يتطلب المعرفة التفصيلية التي يتطلبها التعريف بالحد)([9])

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ١٣٥.
(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي جـ٣ ص ٥٢.
(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٣٦.

(٤) العقيدة الإسلامية والأخلاق تأليف الدكتور/ محي الدين والدكتور/ عبد الفتاح بن الكريم ص ٣٦٦.
(٥) دراسات في علم الأخلاق تأليف الدكتور/ محمود مزروعة ص ٨ .
(٦) العقيدة والأخلاق تأليف الدكتور/ بيصار ص ١٩٠.
(٧) دراسات في علم الأخلاق تأليف الدكتور/ محمود مزروعة ص ٩.
(٨) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ١٢.
(٩) دراسات في علم الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٩.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب من الاعتراض على تعريف العلم في بدايته إلى الاعتراض على التعريف المختار بقول المعترض (إن التعريف يشتمل على ذكر الرذائل مع أن علم الأخلاق خاص بدراسة الفضائل والبحث فيها ولا علاقة له بالبحث في الرذائل) وهذا هو الاعتراض على التعريف المختار وفى موطن الإجابة نقول (إن ذكر الفضائل وتحديدها وتوضيحها يؤدي حتما إلي معرفة الرذائل ضمنيا وبالمقابلة وبضدها تتميز الأشياء)([1])

(١) المرجع السابق ص ٩.

موضوع علم الأخلاق

بدهي جداً أن موضوع أي علم مسائلة وظواهره الذاتية التي يختص بالبحث فيها فموضوع علم الطب هو: **بدن الإنسان**.

- وموضوع علم التاريخ هو: **الإنسان من حيث علاقته بالزمان**.
- وموضوع علم الجغرافيا هو: **علاقة الإنسان والحيوان بالمكان.... وهكذا**

ولندير الحديث حول موضوع علم الأخلاق وهو (أفعال الإنسان وسلوكه من حيث الحكم عليها بالخيرية أو الشرية)([1])

ويبقى **السؤال** قائما:

هل كل الأعمال التي تصدر عن الإنسان يمكن الحكم عليها بالخيرية أو الشرية؟ أم أن هناك أعمالا لا تخضع لهذا الحكم؟

والإجابة قد كتبها علماء عركوا الحياة وتأملوا ظواهر الإنسان وبواطنه فقالوا:

أعمال الإنسان التي تصدر عنه ثلاثة أقسام :

(أعمال إرادية - أعمال لا إرادية - أعمال شبه إرادية)([2])

والفرق في المعنى بين الأعمال الإرادية، والغير إرادية والشبه إرادية فرق كبير لا يمكن تجاهله، مما يستوجب الوقوف والشرح والتفصيل ولنبدأ ب:

(١) تأملات في فلسفة تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ٢٠.

(٢) تهافت الفلسفة عن درك الحقيقة المطلقة تأليف الدكتور/ محمود أبو الفيض المنوفي ص ٣٩٠.

أولاً: الأعمال الإرادية:

وهى (الأعمال التي تصدر عن الإنسان بعد تفكير فيها وتدبر لأهدافها ونتائجها، وتوجه إرادة الإنسان نحو عملها والقيام بها)([1]).

والأمثلة على ذلك لا تقع تحت حصر:

فمثلا: الإنسان الذي قام ببناء مسجد أو دار للأيتام أو مدرسة لتعليم الأولاد أو ..... الخ من أفعال الخير فلا بد أن حس المسئولية الخلقية جعل هذا الإنسان يفكر في مدى حاجة المجتمع إلى هذا العمل النبيل.

والسارق الذي سولت له نفسه ارتكاب جريمة السرقة وسرق وهو يعلم ما يترتب على هذه الجريمة شرعا وقانوناً – لأنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص – فهذا العمل صدر عن مرتكبه بقصد وإرادة واختيار، وبدهى جداً أن يوصف هذا العمل بالشر.

ثانياً: الأعمال غير الإرادية:

وهى (أعمال ليس للإنسان إرادة في حدوثها، ولا قصد في عملها لأنها خارجة عن إرادته)([2]) وليكون المعنى أوضح ظهوراً نقول:

الدورة الدموية والتنفسية وعملية هضم الطعام وتمثيله ودقات القلب، وحركة الأمعاء .... الخ فهذه الأعمال وأمثالها تتم دون قصد، ودون إرادة، ودون تفكير فيها أو تدبر النتائج المترتبة عليها، فهذه الأعمال وأمثالها من الأعمال اللاإرادية.

---

(١) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبي ص ٣٥.

(٢) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ٢٠ بتصرف.

ثالثاً: الأعمال شبه الإرادية:

(وهى الأعمال التي تشبه بوجه منها الأعمال الإرادية، ومن وجه آخر الأعمال اللاإرادية، أو إذا نظرنا إليها من جهة حسبناها أعمالا إرادية، وإذا نظرنا إليها من جهة أخرى حسبناها لاإرادية)([1]) ولتوضيح ذلك نضرب أمثلة تنساب في سلاسة وسهولة وإقناع فمثلا: الذين يقومون بأعمال لا يدركون ما يترتب عليها ولا يقصدون النتائج. كإنسان يأتي بعض الأعمال وهو نائم فيقوم من فراشه – وهو نائم – ويأتي أعمالا لا يدركها ولم يقصدها لأنه لم يفكر فيها بل لا يريد عملها – لأنه يفعلها وهو نائم – ثم يعود إلى فراشه ويستغرق في نومه دون أن يدرك ما فعله – لأنه نائم – وليست هذه الحالة – المرضية – هي الوحيدة التي توضح المقصود بالأعمال شبه الإرادية فإذا أردنا ضرب مثال آخر يوضح المقصود بالأعمال شبه الإرادية قلنا: لو أن إنسانا حفر بئرا أو حفره لسبب أراده فوقع في هذا البئر أو الحفرة إنسان أو حيوان. فهذه الأعمال وأمثالها إذا نظرنا إليها من جهة أن فاعلها كان في إمكانه الاحتياط لها، أو التحذير منها حسبناها أعمالا إرادية وإذا نظرنا إلى فاعلها من حيث أنه لا دخل له فيما ترتب عليها، ولا إرادة، ولا قصد له فيما حدث حسبناها أعمالا لا إرادية. لأنها أعمال إرادية المقدمات غير مقصودة النتائج ولعله قد بات واضحا. أن موضوع علم الأخلاق هو: أعمال الإنسان الإرادية وشبه الإرادية. وذلك الحد الفاصل بين ما يمكن إخضاعه لعلم الأخلاق – الأعمال الإرادية وشبه الإرادية – وبين ما يستعصى إخضاعه لعلم الأخلاق كأعمال الإنسان غير الإرادية وأعمال غير الإنسان مما يصدر عن الطبيعة أو الحيوان.

(١) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبى ص ٣٦.

فائدة علم الأخلاق ووجه الحاجة إليه

مناط دراسة العلوم هي الفائدة المرجوة منها ولما كان لكل علم فوائد يؤديها في مجال بحثه فيمكن النظر إلي علم الأخلاق من خلال هذه العلوم علي انه هو الفحوى الأخيرة لكل علم (ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن كل علم من العلوم البشرية لابد له من الأخلاق لان كل علم لا يتحلى بالخلق أو لا يؤدي إليه هو علم غير أخلاقي تشقى به البشرية ولا تسعد)([1]).

فالعلوم تنطلق منه لأنها محكومه بمنطقه ولما كانت العلوم معه في حالة حضور دائم فيجب أن نفهم أن (علم الأخلاق، يعرفنا بالفضائل ويدلنا علي طريق الفضيلة، وليس من سلطته بعد ذلك أن يجعلنا فضلاء صالحين ما لم يكن عندنا استعداد وإرادة لأن نأتمر بأوامره وننتهي بنواهيه)([2]).

ولسنا نرى في هذا ما يمكن أن يجرنا إلى الحكم المتسرع بأن علم الأخلاق مجرد تأمل تجريدي، وان الهوة الفاصلة بين القول والفعل لا يمكن سدها إلا أننا نسارع فنصحح مفهوم هذا العلم الحامل لهموم الإنسان من أجل تشكيله للفضيلة، وليت العلماء يحرصوا علي أن ينطلقوا منه وليس إليه.لأن الصيغة النهائية لآية علم هي:

أولا:- أن يرضى الله تعالي عنه.

ثانيا:- أن يفيد البشرية.

وعلم الأخلاق قادر علي تشكيل الأنظار والرؤى وطرائق السلوك شريطة أن يكون عند المرء الاستعداد الطيب. فعلم الأخلاق واقعي وأيضا معياري صالح للجميع ويجب علي الجميع احترامه لأنه يقدم للبشرية فوائد عظيمة نذكر منها:

١- يجب المعرفة بمبادئ هذا العلم ، وأصوله، وقواعده، حتي نكيف أفعالنا وسلوكنا علي أساسه.

٢- يهذب أخلاقنا، ويرقي سلوكنا، ويسعى بالإنسان دائما نحو ما ينبغي أن يكون.

٣- تحديد المثل والقيم التي يجب أن ترقى إليها أفعالنا وسلوكنا التي يجب أن نتشبه بها بقدر الوسع البشري.

٤- يوجه إرادتنا البشرية ويعودها بالممارسة المتكررة علي التوجه نحو الخير والحق وما يحقق إنسانية الإنسان وكرامته.

٥- يعمل علي تغذية الضمير الإنساني وإحيائه بما يوافق جوهره وينمي طبيعته الخيرة.

٦- يمكننا من الحكم علي آي أمر من الأمور بأنه خير أو شر تبعا لقوانين الأخلاق العامة وقواعده الثابتة.

٧- يمحص النظريات والقضايا المتعلقة بأخلاقيات الإنسان وسلوكه واختيار الصالح منها لسعادة الفرد والجماعة.

٨- معرفة حقوق الإنسان وواجباته نحو الله تعالى والمجتمع)([3]).

ولو كان المراد حصرا علميا لفوائد هذا العلم العظيم لمضيت اذكر التاسعة والعاشرة وما شاءت الحقيقة – لعلماء هذا الفن - من عدد ولكن هذه النقاط ما هي إلا طي لما هو موجود في هذا العلم الجليل

---

(١) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبي ص ٣٨.

(٢) دراسات في الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ١٢.

(٣) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبي ص ٣٩.

تقسيم علم الأخلاق إلى نظري وعملي

نستطيع في مجال تحديد – أقسام علم الأخلاق – أن نقول نتفق جميعنا علي أن علم الأخلاق ينهج جانب نظريا وآخر عمليا.

أولا: الجانب النظري

وهو الجانب الذي (يضع القواعد للجانب العملي ويعرفه بالغرض المطلوب إذ لا معرفة إلا بعلم ولا عمل إلا بمعرفة فمن عرف دلته المعرفة علي العمل)([1]).

فمن البدهي أن نقول إن المعقول أن توجد علوم نظرية قابلة للتطبيقات العملية أو المعملية، ودراسة الإنسان (للأخلاق النظرية قد أمدته بالمعرفة الصحيحة التي جعلته نافذ الفهم ،عميق الفكر، صادق الحكم في كل ما يتصل بموضوعات علم الاخلاق)([2]) وذلك لأن الأخلاق النظرية تصف (حقيقة الخير والشر وسائر القيم الأخلاقية من حيث هي، فهو لهذا يعد علما معياريا لعنايته بالأحكام التقويمية)([3]).

ولنكن علي وعي بقيمة الجانب النظري للأخلاق لأن مقاييسه النظرية (كالمقاصد بالنسبة للمبادئ والغايات بالنسبة للوسائل، لأن الغاية القريبة من مباحث علم الأخلاق هي أن نهتدي إلى مقياس أدبي وقواعد عامة لنرجع إليها في تقرير قيم الأعمال الإرادية الإنسانية)([4]).

وحسب الجانب النظري للأخلاق أن يكون مدخلا إلي العلوم بكاملها. وحسب دراستنا له أن تكون المرجع العملي.

وحسب (العلم النظري للأخلاق أن يكون مجرد معرفة والعملي سلوك والصلة بينهما كالصلة بين اليد والعمل)([5]).

ثانيا الجانب العملي:

إذا كان الجانب النظري في الأخلاق يمثل تحصيل موضوعات علم الأخلاق كالخير والحق والجمال وسائر أنواع الفضائل فإن الجانب العملي هو (المراقب والمرشد للضمير في معالجة أمور الحياة)([6]) مما يؤكد صعوبة هذا الجانب لأنه جانب الالتزام بما تم تحصيله من القضايا الأخلاقية التي ينبغي أن يناضل الإنسان –تحت رايتها – كثيرا من ذبذبات الجموح في الذات الإنسانية ولذا نجد (المربون والمرشدون عموما اعتمدوا على علم الأخلاق وعنوا به في شئون التربية و التهذيب لتركيزه وعنايته بالجانب العملي)([7]).

والقيمة النهائية للجانب العملي في الأخلاق ولكل سلوك وافق ما يقتضيه الحق شبهه العلماء (بالثمرة التي نجنيها ونحصل عليها من دراسة علم الأخلاق فهي – الأخلاق العملية – في الحقيقة تعد فنا لتطبيق الجوانب النظرية عمليا ليتسنى تحديد الواجبات وترتيبها حسب أهميتها وبيان ما للفضيلة والرذيلة من أثار في مجرى الحياة العملية)([8]).

وبدهي أن (الأخلاق لن تجدي نفعا إذا ما ترك أحد شقيها – النظري العملي- أو حدث استخفاف بجانب من كلا الجانبين)([9]).

---

(١) فلسفه الأخلاق في الإسلام تأليف/ محمد جواد مغنية ص ٥٣.

(٢) دروس في تاريخ الفلسفة تأليف الدكتور/ إبراهيم بيومي مدكور ص ٢١٦.
ونظر – الله أساس المعرفة والأخلاق تأليف/ ديكارت ص ١٥٤.

(٣) المعجم الفلسفي تأليف الدكتور/ مراد وهبه ص ٢٨٣.

(٤) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العلمية تأليف الدكتور/ أبو بكر ذكري ص ٤٧.

(٥) فلسفة الأخلاق في الإسلام تأليف/ محمد جواد مغنية ص ٥٤.

(٦) المعجم الفلسفي تأليف الدكتور/ مراد وهبه ص ١٢.

(٧) يرى أرسطو أن القسم العملي في الأخلاق ينقسم إلي ثلاثة أقسام هي:
أ- علم بمصالح شخص بعينه ليتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل وهو علم الأخلاق.
ب- علم بمصالح جماعة مشتركة في المنزل ويسمى علم تدبير المنزل.
والثلاثة يتضمنها علم الأخلاق. انظر تأملات في الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ٢٩
ج- علم بمصالح جماعة مشتركة في المدينة ويسمي علم السياسة.

(٨) انظر: تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية تأليف الدكتور/ أبو بكر ذكري ص ٤٧.

(٩) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية تأليف الدكتور/ أبو بكر ذكري ص ٤٧.

وتظهر القيمة الحقيقة لدور الجانب العملي في الأخلاق في انعقاد الإجماع علي فائدته المحققة أما الجانب النظري فيقتصر علي مجرد فهم حقائق سائر أنواع الفضائل.

ونخلص من هذا إلي أن لعلم الأخلاق جانبين:

نظري: يتمثل في المعرفة بأصول هذا العلم وقواعده وقوانينه.....الخ

عملي: تطبيقي يعني بالتطبيق العملي لهذه القواعد والقوانين ويقترح امثل الطرق للتأديب والتهذيب والإصلاح. وهذا ما عليه جمهور الأخلاقيين وهو الأرجح في نظرنا.

(فالتحقق بالمعرفة "علم" والتطبيق لها "عمل" فهو علم وعمل، الأول: "علم" والثاني: "فن" الأول علم الواجب والثاني عمل الواجب)([1]).

الفصل الثاني

الخلـــــــق

- **معناه.**
- **عوامل تكوينه.**
- **كيفية تكوينه.**
- **قابلية الأخلاق للتغيير .**

(١) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبي ص ٤٤.

الخــلق

بعد كل ما قدمناه في تعريف الأخلاق أو الخلق نحن هنا مع الخلق الذي يكون (طبيعيا من أصل المزاج أو الخلقة كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب وهذا مبدؤه: الروية والفكر ثم يستمر عليه حتى يصير ملكة وخلقا)([1]) وإننا نرى في هذين الاتجاهين ما يمكن أن يجرنا إلى الحكم على القسم الثاني: وهو الخلق المكتسب أو المستفاد .... ومبدأ هذا النوع أو بدايته يجرنا إلى الحديث عن

كيفية تكوين الخلق

يقول الإمام الغزالي (إن أول ما يرد على القلب هو:

أولاً: الخاطر: وهو ما يخطر على النفس الإنسانية ويجيش بها، ويسمى "حديث النفس".

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾([2]).

ثانياً: التصور: ويلي الخاطر مباشرة وهو: إدراك صورة الشيء الذي خطر بالقلب في الذهن.

ثالثاً: الميل: ويلي التصور مباشرة وهو: توجه من الإنسان نحو شيء تصوره وأدرك الغرض منه، والغاية المترتبة عليه.

قال تعالى ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ ([3]).

رابعاً: الرغبة: تلي الميل مباشرة وهى: تغلب ميل على سائر الميول التي تجيش في النفس بعد تصورها وإدراك الغرض منها.

خامساً: العزم والتصميم: ويلي مرحلة الرغبة، والرغبة تقف عند مرحلة الميل، ثم تترك الأمر للإرادة الإنسانية، فهي حرة.

والأمر مفوض إليها، تارة تأمر بالفعل، وتارة تنهى عنه، فإذا عزمت الإرادة على فعل شيء أو تركه جاء التصميم ليؤازر الإرادة في عزمها، وهنا يظهر الجانب الأخلاقي.

سادساً: (الفعل الأخلاقي: ويلي مرحلة العزم والتصميم وهو التنفيذ وبالتنفيذ يتم الفعل الأخلاقي الصادر عن الإرادة الحرة المختارة)([4]).

ومع تكرار الفعل مرات متعددة يصبح الفعل له عادة والعادة إذا تكررت تصبح ملكة أو هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بلا تفكير أو روية ويتحقق الخلق ويتكون في النفس. وقد تثير المراحل الستة السابقة تساؤلا هائلا هو: هل يمكن أن تنتقل الأخلاق من جيل إلى آخر عن طريق الوراثة والبيئة وتتحول من أخلاق مكتسبة أو مستفادة إلى أخلاق فطرية في الأجيال الآتية؟ وندع الإجابة لتأمل علماء الأخلاق فى: عوامل تكوين الخلق.

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكوية ص ١٧.

(٢) سورة ق آية ١٦.

(٣) سورة النساء آية ١٢٩.

(٤) الإحياء للإمام الغزالي الجزء الثالث ص ٣٥، ٣٦.

الوراثة والبيئة

تأثير الوراثة والبيئة على الخلق أمر مقطوع بصوابه وليس أمامنا أدنى مجال للشك بأن الحد الفاصل بين أخلاق كريمة وأخرى رذيلة هو مدى تأثير الورثة والبيئة، وحتى لا يختلط في الذهن دور كل منهما نبدأ أولاً بدور الوراثة.

أولا:- الوراثة

الحق يجب أن يقال إن قضية الوراثة قضية علمية أكثر منها قضية فلسفية لأنها تتناول بالشرح والتحليل والتعليل انتقال بعض صفات الأصل إلى الفرع قل ذلك أم كثر، والخصائص التي يرثها الفرع عن الأصل كثيرة ولكنها مع كثرتها أرجعها العلماء إلى واحد من **ثلاثة**:

ا- وراثة الخصائص الجسمية.

ب- وراثة الخصائص العقلية.

ت- وراثة الخصائص الخلقية.

ويمكن تقسيم الخصائص التي تورث باعتبار آخر إلى:

أ- خصائص فطرية.

ب- خصائص مكتسبة)([1]).

على هذا الحد الأخير – الخصائص المكتسبة – دور هام في قضية عوامل تكوين الخلق فيجوز توريث الصفات المكتسبة وفريق آخر يرى أن القول بأن الصفات المكتسبة تورث يمكن رفضه.

والخلاف بين العلماء في قضية الصفات المكتسبة، هل تورث أو لا تورث حافل بالملاحظات العلمية العميقة والحجج المنطقية ونستطيع أن نتبين ذلك من خلال الفريقين.

الفريق الأول: (وهو من العلماء المحدثين وعلى رأسهم أصحاب مذهب النشوء والارتقاء من أمثال "لامارك" و"دارون" و "هيجل"، سبنسر" وهؤلاء جميعا ذهبوا إلى أن الصفات المكتسبة تورث كالصفات والخصائص الفطرية)([2]).

ولكي يتضمن هذا الرأي الإقناع استدل أصحاب مذهب النشوء والارتقاء بأدلة كثيرة أهمها:

أولاً: أن سواد البشرة بالنسبة لسكان المناطق الحارة لم يكن لوناً طبيعياً في أجدادهم الأوائل. ولكنهم اكتسبوه تحت لفح أشعة الشمس في المناطق الحارة ثم ورثه عنهم أبناؤهم. ويتوالى الزمن أصبح خاصية وراثية يرثها الأبناء عن الأباء، أو الفرع عن الأصل.

ثانياً: جرت عادة الإسكيمو أن يقطعوا أذناب كلابهم التي تجر عرباتهم على الثلج وبمرور الزمن لوحظ أن هذه الكلاب تلد كلاباً مقطوعة الأذناب ومعنى هذا أن هذه الصفات المكتسبة تنتقل من الأصل إلى الفرع)([3]).

الفريق الثاني: يرى أصحاب هذا الرأي أن الصفات المكتسبة لا تورث كالصفات الفطرية وقد استدلوا هم أيضاً بأدلة كثيرة أهمها:

أولاً: أن عادة الختان موجودة لدى العرب وبني إسرائيل منذ زمن طويل ومع ذلك يولد الأبناء غير مختونين.

ثانياً: نرى عادة الوشم موجودة عند كثير من القبائل منذ زمن بعيد ومع ذلك لم تنتقل هذه الصفة من الأصل إلى الفرع فأولادهم غير موشومين.

ثالثاً: يلبس نساء الصين أحذية حديدية لتصغير أقدامهن منذ عصر قديم ومع ذلك لم تصغر أقدامهن بطريق الوراثة.

رابعاً: تعلم القراءة والكتابة من ألاف السنين ومع ذلك فلم نر من يولد يقرأ أو يكتب)([4]).

---

(١) دراسات في علم الأخلاق للأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٣٣.

(٢) فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ محمد يوسف موسي ص ١٩.

(٣) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ١١٩.

(٤) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ١١٩.

مما تقدم يتضح الفرق اللافت للنظر بين الفريقين

ومن التناقض أن نؤيد كلا من الرأيين لأنها قضية علمية وليست فلسفية بيد أن ذلك لا ينقص من عمق أدلة كل فريق، ولكن الحق يجب أن يقال إن كل فريق ليس على صواب في كل ما ذهب إليه من أدلة (وذلك لأن الصفات المكتسبة لا يمكن أن تورث إلا إذا مضى عليها زمن طويل تتأصل فيه حتى تؤثر في الجهاز العصبي للإنسان وبذلك تخرج من دائرة الصفات المكتسبة إلى دائرة الصفات الفطرية أو الطبيعية)([1]).

وعليه فلا مشاحة إطلاقا في أن نقصر الخصائص التي يكتسبها الفرع عن الأصل على:

أ- وراثة الخصائص الجسمية.

ب- وراثة الخصائص العقلية.

والكلام عن دور الوراثة في الأخلاق يجب أن يحدد وفى طريقناً لهذا التحديد نقول: إن أخلاق الوالد لا تنتقل إلى الولد عن طريق الوراثة. ولكنها إن وجدت في الولد فليس ذلك عن طريق الوراثة، ولكنه ناتج عن البيئة وأسلوب التربية.

ولا يعنى هذا أننا نوصد الطرق أمام الورثة لكي لا تكون عاملاً من عوامل تكوين الخلق، ولكن الذي نريد أن نقوله (إن الخصائص الجسمية التي يرثها الشخص عن أصوله القريبة أو البعيدة هذه الخصائص لها دخل كبير في تكوين الخلق عند الشخص لأنها تتدخل في تكييف نفسيته، وفى تكوين تفاعلاته مع الآخرين إيجاباً وسلباً. هذه التفاعلات التي هي تعبير عن الأخلاق وصدى لها)([2]).

ويمكن أن نلاحظ شخصا ورث عن أبويه خلقا جميلا جعله فئ حظوة بين أقرانه، مثل هذا الإنسان غالبا ما نراه يندمج في المجتمع ويتفاعل معه بنفس صافية بعيدة عن العقد والرواسب النفسية. فتؤثر الخِلقة في الخلق تأثيرا إيجابيا فنراه بين أقرانه على دماثة خلق، ورقة إحساس، ورحابة شعور وأوفرهم جميعا حظا في حب الحياة.

وعلى العكس من ذلك تماما نجد شخصاً آخر ورث عن أبوية بعض العيوب الخلقية جعلته يعانى المنع والحرمان، وتذهب نفسه على الآخرين حسرات. فنراه لهذا منطوياً على نفسه يجتر من ذاكرته الآلام فتترسب في نفسه العقد والأمراض النفسية وتأثير الخِلقة في الخلق تأثيرا سلبيا نراه عندما ينبجس الحرمان من داخلها كالطوفان حقداً على المجتمع وبغضاً على الأسوياء، ومن هذا نتبين أن هذين الشخصين لا يمكن أن تكون أخلاقهما على مستوى واحد بل أثرت الخلقة في الخلق، وبهذا أعطى علماء الأخلاق للوراثة حجمها الحقيقي الذي لا تتعداه فالترابط بين الخلقة والخلق هو المحور الأساسي التي تنطلق منه الوراثة وتعود إليه. ولا نستطيع أن نخرج بدور الوراثة من هذه المحدودية، فليس هناك أساس للقول بأن الأخلاق تورث فالعلماء الذين بلغت دراستهم للعلوم الطبيعية حد الإتقان، والذين أسهموا في توسيعها بفضل تفكيرهم الشخصي وذكائهم الحاد كشفت دراستهم عن القول بأن "الأخلاق لا تورث"([3])، هذه واحدة

أما الأخرى فإن (القول بأن الأخلاق تورث كما تورث الصفات والخصائص الجسمية يهدم الحكمة من الأديان، ويبطل جدوى التربية والتعليم، ويعفى على أثر التأديب والتهذيب، لأنه ما دامت الأخلاق تورث كالخصائص الجسدية يهدم الحكمة فلا أمل في تغييرها، ولا طمع في تحسينها، وأكثر من ذلك إن القول بوراثة الأخلاق يهدم المسئولية الشخصية التي هي أساس الحساب والثواب أو العقاب([4]).

---

(١) دراسات في علم الأخلاق للأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦.

(٣) العوامل الوراثية ويقصد بها المورثات الجينية: فالصفات المنقولة من الآباء تتحدد بالمورثات التي تحملها ٢٣ زوجا من الكروموسومات أو الصبغيات عندما يتحد الحيوان المنوي بالبويضة. وتحمل الكروموسومات سلسلة طويلة من الجزئيات الدقيقة التي تعرف بالمورثات أو الجينات "يتراوح عددها بين العشرين والخمس والعشرين ألفا" ويجب ملاحظة أن عوامل الوراثة تساهم فقط في تكوين البنية).
انظر: مدخل إلي علم النفس إعداد الدكتور/ هشام صقر ص ٩٦.
(٤) دراسات في علم الأخلاق للأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٣٦.

ويؤكد مضمون هذه المقولة الأخيرة ما نراه من إمكانية تغيير الخلق وإلاَّ لما كان للتربية والتعليم والتثقيف دوراً ولا معنى ولا للأنبياء والمرسلين والمصلحين دور في التربية والتهذيب.

ولكن الواقع يرينا كيف تجاوز الأنبياء بل والمصلحون الأخلاق السيئة إلى أخلاق الفضيلة والسلوك الكريم بتخليقهم بالواقع فوق الواقع كثيراً بالتهذيب والتأديب والتربية حتى بدا واقع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لا يعبر عن حياة الجاهلية بل يعبر عن أخلاق الإسلام. أي أن الإسلام ربطهم بنوع من الحلول والاتحاد فيهم – إن جاز التعبير – من حق وصدق وخير وإحسان ..... الخ.

البيئـــة

بكل بساطة نستطيع ونحن مطمئنون تماماً أن نقول إن العامل الثاني من عوامل تكوين الخلق:

(البيئة: تطلق على الأشياء التي تحيط بالجسم الحي وينمو فيها فبيئة النبات تربته وجوه، وبيئة الإنسان ما يحيط به من بلاد وبحار وأنهار وجو وقوم)([1]).

ونفهم من هذا... أن الهواء والماء والجو والأرض وما تشكله من جبال ووديان وسهول وأنهار وبحار وصحراء، والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، وما يتلقاه الإنسان في البيت والشارع والمدرسة والجامعة وما يتفاعل معهم من رفاق وأصدقاء، وما يحيط به من عادات، وتقاليد، وتعليم، وإعلام، وأديان، وصحافة، وإذاعة، وتلفاز، ودور للمسرح..... الخ كل هذا وغيره له أثره البالغ في الصيرورة الإنسانية وتأثيره.

وما دامت البيئة قادرة على الولوج هكذا في الخُلق الإنساني فإن لها قانوناً خاصاً.

وقانونها: (استجابة الكائن الحي لما حوله من مؤثرات بيئية، وتكييف نفسه تبعاً لمقتضياتها)([2]).

من هذا القانون نتبين أن كل بيئة فيها إرادات التعبير عنها، فالرجل الذي يعيش في بيئة همجية متنقلاً بين أدغالها وأحراشها، يسير عاري الجسد لا يستره سوى رقعة من جلد حيوان يلفها حول نصفه الأسفل ولا تجدي معه كل محاولات صرفه عن زيه ولو برؤية الآخرين؛ لأن تأثير البيئة في أعماقه أكبر من أن تحبسه قيود أو حدود، ولأن فيض إحساسه بلباسه يجعل المجتمع ينبذه ويسخط عليه ويزدريه إن فعل غير ذلك.

وكذلك نحن لو تركنا لباسنا لرفضنا مجتمعنا. فلا بد أن نبصر الزي على ضوء البيئة.

فللبدائي بيئته، ونحن في بيئتنا ولا بد لكل منا أن يتكيف تبعا لهذه البيئة ويستجيب لمقتضياتها وقانونها نحن هنا إذن يمكننا تقسيم البيئة إلى قسمين:

ا- بيئة طبيعية.

ب- بيئة اجتماعية([3]).

وعلينا أن ننبه إلى أن الفرق بين البيئتين هو:

البيئة الطبيعية: وهى ما يحيط بالإنسان من ظواهر كونية ومظاهر طبيعية مما لا دخل له في تكوينها وأحداثها أو إدخال تعديل عليها. كالأرض. والماء والهواء.... الخ .

البيئة الاجتماعية: والبارز في هذه البيئة أنها تحيل العقل البشرى ليس إلى مجرد رؤيته الخاصة، وإنما إلى نقطة انطلاق إلى عالم يختلف في تكوينه عن عالم البيئة الطبيعية فالبيئة الاجتماعية رؤية ذاتية للآخرين تتسلط على العقل البشري، وتسيطر على الإرادة الإنسانية. مثلا: المنزل، والمدرسة، والنادي، والأصدقاء، والصحف، والكتب، ودور السينما والمسرح، والقوانين، والنظم، والقرية، والمدينة، والدولة..... الخ

كل هذا وغيره أوجده العقل الإنساني ونفذته الإرادة الإنسانية. لهذا فإنه يعكس رؤية ذاتية للآخرين – الذين أسهموا في إبرازه للحياة والأحياء – تتجاوز كافة الحدود وتتحكم في حركة التوجيه. وننبه على أن تأثير هذه البيئة على الجميع وإن اختلفت درجة تأثيره.

ولكن يحسن أن نمضى إلى صميم غرضنا فنطرح هذا **السؤال**:

أي البيئتين له تأثير في الأخلاق ؟

والجواب في يسر وسهولة: ليس من شك في أن للبيئتين أثرهما الذي لا ينكر في الأخلاق.

فللبيئة الطبيعية أثرهما الواضح في الأخلاق (فنحن نرى أن أخلاق سكان المناطق الحارة تختلف عن أخلاق سكان المناطق المعتدلة أو الباردة، فسكان المناطق الحارة سريعو الانفعال، سريعو الغضب، سريعو الرضا

---

(١) الأخلاق تأليف/ أحمد أمين ص ٤٦.

ج

(٢) دراسات في علم الأخلاق للأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٣٨.

(٣) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبى ص ١٨٧.

متطرفون في كل شيء ومزاجهم ملتهب، ومشاعرهم متأججة. وذلك عكس ما عليه سكان المناطق الباردة فهم يمتازون ببرود العاطفة والتروي والهدوء ولا شك أن الاختلاف في المزاجين، والتناقض بين الخلقيين إنما هو نتيجة الاختلاف بين البيئتين)([1]).

أما البيئة الاجتماعية: ففيها من التباين والاختلاف ما يجسد تأثيرها القوي في تكوين الأخلاق، ولكي نعطي هذه البيئة الاجتماعية ما تستحق من تأثير نذكر أن الإنسان ابن بيئته فللنور أو الغجر بيئتهم، ولليهود أخلاقهم الحسنة وللمسلمين أخلاقهم الحسنة. وقد تكون هذه الطوائف المختلفة تعيش في بيئة واحدة، ولكن تضيع الوحدة المنشودة وتصبح الأخلاق جزرا معزولة بسبب البيئة الاجتماعية؛ لأن العرف الذي هو مجموع العادات المختلفة قد نشأ وتكون في عصور طويلة ثم انتشر وترسخ في النفوس حتي (أصبح الأخذ به واجبا علي كل فرد، حتى لا يتعرض لسخط الشعب وعقابه الشديد ، فالإنسان ابن عوائده، ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، أي أنه تؤثر فيه العوامل الموضوعية أكثر من العوامل النفسية والأفكار التجريدية) ([2]) وهكذا يتبدى لكل أمة عرف خاص يعد التمسك به خيراً وتنشأ الأبناء علي التأدب به والحرص عليه كما يعد مخالفته وعدم العمل به أمراً مستقبحاً والعرف يستطيع دائما أن يفجر في الأشياء الساذجة معاني كبيرة تبدو بها مخالفة للحقيقة تماما، وذلك لأن الأعراف الاجتماعية من الصعب الخروج عليها لأنها المألوف المتعارف عليه وليس هذا بمستغرب علي أيه أمه ترى في العرف الاجتماعي قدرها الذي لا يصده عنها صاد من أي لون..... هكذا يبدو الفرق شاسعا وكبيرا بين البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية فالعرف والعادات والتقاليد في البيئة الاجتماعية تتصاعد إلى ذروة التوتر والاحتدام عند مخالفتها، ولقد أحس ابن خلدون بمدى تأثير البيئة الاجتماعية في قوله إن (القانون الموضوعي في الحياة الأخلاقية والإنسانية أكتر صرامة مما هو في الطبيعة)([3]).

ولعله قد بات واضحا أن البيئة الاجتماعية أقوي تأثيرا من البيئة الطبيعية وذلك لأن (البيئة الطبيعية جامدة لا تتطور ولا تتفاعل مع الظروف المتجددة، وأما البيئة الاجتماعية فهي كالكائن الحي الذي يطور نفسه كلما مرت الأيام، وتجددت الظروف، وتغيرت الأحوال) ([4]) ومن الحق أن نلاحظ أن البيئة الاجتماعية تبدو طفرة هائلة إذا قيست بالبيئة الطبيعية وذلك لأن (البيئة الطبيعية تتجدد بالعقل الإنساني فيحولها إلى بيئة اجتماعية، فالكهوف تحولت إلى بيوت والأنهار خضعت في مسيرها وتصريفها لإرادة الإنسان، والسيارات والقطارات والطائرات أصبحت بديلة للخيل، والبغال والحمير، وأصبح الإنسان الذي يعيش في بيئة طبيعية، يحيا في بيئة كلها صناعية من اختراع عقله وتفكيره)([5]).

حتي لا نسهم في خلط الأوراق، لنا أن نقول: البيئة الأولى للإنسان هي بطن أمه، (وهذه البيئة تؤثر فيها عوامل كثيرة)([6]).

والبيئة الاجتماعية تبدأ بعد ولادة الطفل، فالأسرة والمنزل والمدرسة والأصدقاء والقراءة والدين.....الخ

لا مشاحة إطلاقا فيما يتعلق بتأثير البيئة الاجتماعية فتأثيرها الأكبر والأقوى في تكوين أخلاق الإنسان.

نحن هنا إذن مع بيئة – اجتماعية – تمتلك عافية التأثير الواضحة علي الأخلاق، وتمتلك كذلك تشكيل الخلق الإنساني (فظلم بعض الناس لبعض أمر ناشئ من أثر البيئة و تربية السلوك والعادة ونحو ذلك من العوامل المؤثرة في الأخلاق بالإيجاب أو السلب)([7])

---

(١) دراسات في علم الأخلاق للأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٣٩.
(٢) الأخلاق بين النظر والتطبيق تأليف الدكتور/ عبد الستار مختار نصار ص ٨٠.
(٣) المرجع السابق ص ٨١.
(٤) دراسات في علم الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٤٠.
(٥) دراسات في علم الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٤٠.
(٦) بيئة الرحم (ما قبل الولادة) وتشمل ما يلي:
١- تغذية الأم ٢- الإصابة بالأمراض أثناء الحمل ٣- السن المناسب للحمل ٤ – تناول العقاقير والأدوية الممنوعة والتدخين ٥- تناول الكحوليات والمخدرات ٦- إصابات الولادة ٧- التعرض للأشعة السينية ٨- الحالة النفسية والانفعالية للأم ٩- اضطراب الهرمونات
تفاصيل ذلك انظر: مدخل إلي علم النفس أعداد الدكتور/ هشام صقر ص ٩٦، ٩٧.
(٧) الحرية تأليف/ جون ديوي ص ٣٣.

ومع ما لهذه البيئة الاجتماعية من تأثير علي الأخلاق تظل في النهاية قابلة للتغيير وسيكون تجاوزا متعجرفا عجيبا أن يقول قائل إن البيئة الاجتماعية تستعصي علي التغيير فجميع البشر يا عزيزي يريدون أن يعيشوا سعداء والعقل في نظرنا قوة عظيمة للعمل علي تغييرها و آثاره بادية لنا ونجاح محاولاته تنكشف في أولئك الذين خرجوا علي بيئاتهم وتقاليدها كالمصلحين والأنبياء الذين هم بالضرورة الأساس لأي منبع قيمي أصيل.

والعوامل المؤدية إلى البناء الاجتماعي المؤسس للأخلاق يمكن أن ننظر إليه من خلال عدة أمور منها:

١- التربية والتعليم.

٢- الرأي العام.

٣- الشعائر الدينية والقومية.

وتتجسد هذه الأمور وغيرها وتغرس في نفوس النشء فيتمسكوا بها لتصبح عرفا وعادة وقديما كان العرف وحده في حياة الناس هو المقياس الذي يقيسون به العمل والسلوك، فكانوا يحكمون على العمل بأنه خير لموافقته للعرف، وشر لمخالفته إياه، ولا يزال كثير من الناس في كل أمة مهما تحضرت يعملون ما يعملون بسبب واحد هو أنه موافق لعادات قومهم([1]).

وتتبدى خصائص العرف في أنه مقياس الخير والشر فيه يصدرون الأحكام علي السلوك و الأفعال.

ومع كل هذه القوة الشديدة للعرف والتقاليد الاجتماعية فإنه يمكن النظر في هذا العرف بالعقل، فعبارة اللهم إلا العقل منذ قيلت ببساطتها الشديدة وقوتها العظيمة قد احتفظت لنفسها بمكان ومكانة فمع أن الإنسان أسير للعرف والتقاليد ولكن للعقل منطقه ورؤيته وأداته جميعا ومن هنا يصبح العقل أقوى وأثرى وأعمق من العرف والتقاليد ونصبح مع العقل الإنساني في حالة حضور فكري عريض يحلل القضايا من أجل تعليلها، وللتدليل علي ذلك نجد أن الإنسان بعد أن قطع أشواطا عديدة في سلم الثقافة والعلم والحضارة والرقي تبين له أن العرف لا يصلح أن يكون مقياسا صحيحا وذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

أولا: إن كثيرا من أوامره غير معقولة؛ لأنه قد يقضي بتشويه الجسم للزينة والجمال (مثل ما كان من تنسيق الوجه وبرد الأسنان لتكون حادة، والضغط علي الرأس لتكون بشكل معين ووضع القدم في قالب حديد حتي لا تكبر، والإسراف في الأفراح والمآتم والولائم....الخ)([2]).

ثانيا: إن كثيرا مما يتطلبه العرف مضر لأنه قد نشأ في مبدئه نشأة عمياء وكان لذوي النفوذ من الكهان والحكام تأثير فيه وكذا الأساطير مثل (ما كان في الشعوب البدائية حيث قضى العرف فيها بقتل الشيخ الطاعن والمريض إذا طال مرضه، ووأد البنات عند بعض قبائل العرب في الجاهلية خشية العار وتعريض بعض الأطفال للموت علي الجبال في إسبرطة وإحراق الزوجة إذا مات زوجها وفاء له)([3]).

ثالثا: (العرف والتقاليد يتعلقان بزمان ومكان كل أمة فلكل شعب عرفه الخاص الذي نشأ وفق حاجته ورقيه وعصره، فالعرف الصالح لأمة قد لا يصلح لغيرها فهو مقياس خاص لا يصح أن يكون مقياساً عاما لكل أمة في كل عصر)([4])

رابعا: (العرف والتقاليد لا يثبتان على حال فهما دائما في حالة تغير تبعا لسلم الرقي والتقدم والمقياس المتغير لا يصح أن تقاس به أعمال الناس في كل زمان ومكان؛ لأن شرط المقياس الصحيح العموم والثبات.

خامسا: التمسك بالعرف والتقاليد يؤدي إلي جمود المجتمعات وعدم رقيها فلو أن الناس تمسكوا بالعرف والتقاليد وساروا عليهما ما تقدم العالم لكنهم تقدموا لأنهم رأو خطأ العرف وجاهروا بمخالفته ودعوا الناس للخروج عليه فالتف حولهم الكثير و أخذ التغيير يأخذ حقه في الانتشار حتى حل الجديد محل القديم)([1]).

---

(١) العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع تأليف الأستاذ الدكتور/ بيصار ص ٢٣٨,٢٣٧.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف/ فأسيلي بار نولد ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣

(٤) فعادات البدو ليست كعادات الحضر وعرف سكان الغابات لايلائم سكان السهول.

و أوروبا في القرون الوسطى خير شاهد فقد، كانت تعاني من ركود الحركة الفكرية، ووقف عجلة العلم والفكر والثقافة والحضارة إلي أن قادها العلماء إلي عصر النهضة، فتحرر الفرد والمجتمع من أغلال العرف والتقاليد وسلطان الكنيسة، فثارت عقولهم على المألوفات الخاطئة للمجتمع، وأخذوا (يتحررون من قيود الماضي الواضحة البطلان) (٢) ويخرجون على كل سلطة باطلة تقيد حريتهم الفكرية فسلكوا بذلك سبل التقدم العلمي والفكري وقفزوا خطوات فسيحة في ميادين النهضة.

ومع ما في هذه المآخذ من خطورة بالغة على الفكر الإنساني وأضرار وعيوب ذكرنا أهمها آنفا للتدليل علي أن الأخلاق أقرب إلى التعليم منها إلي التوريث يظل في النهاية للعرف سلطانه وقيمته وهذا ما سنحاول أن نتبينه ما استطعنا له بيانا في.

سلطة العرف وقيمته

تميز الفكر البشري في عصوره الحديثة بتحليل الأفكار من أجل تعليلها لهذا لم يستطع تجاوز المآخذ الفكرية التي لحظها العلماء علي الفكر القديم فكان عصر العلم الذي تميز بالتعليم الصحيح لا بالتوريث الخاطئ، فكان أوفر العصور جميعا اقترابا حقيقيا من فهم حكمة الوجود، وفلسفة الحياة، ولعل ثورة علماء عصر النهضة ضد الأوضاع الخاطئة للأعراف والتقاليد والعادات وضعت عصرهم في مكانه الطبيعي – عصر النهضة – الذي يعد إرهاصا حقيقيا للعصر الحديث.

ومع ما ذكرنا من نقائص للأعراف والتقاليد و العادات القديمة التي أدركها العقل البشري بالعلم والتعليم وثار فيها علي ميراث الآباء والأجداد ليظل العرف دائما واحداً من القوى التي لها (من قديم الزمن سلطان وقيمة ومركز شبيه بمركز القانون اليوم نظراً لما كان يقوم به من كف الناس عن الخروج علي النظم الموضوعة ويمنعهم من ارتكاب كثير من الجرائم والمنكرات ومن تعدي بعضهم على بعض)(٣).

وقديما قاد العرف الشعوب إلي البقاء فقد (احتفظت الشعوب البدائية بوجودها وكيانها ، فإذا لم تكن في الشعب و حده ظاهرة وقوة متماسكة لتفكك المجتمع وسهل على الشعوب والقبائل الأخرى التغلب عليه وافتتاؤه)(٤)

وتتبدى قيمة العرف وفوائده في العصر الحاضر فلا يزال (يمثل قوة تخيف من تحدثه نفسه بارتكاب أي نوع من الموبقات فيصده عنها)(٥)

ونستطيع في مجال تحديد الخصائص المميزة للعرف في العصر الحديث أن نسقط المأخذ التي ذكرها العلماء آنفا عن العرف في العصور الوسطى فسلطانه لم يعد كما كان قديما قوة عمياء تمنع المجتمع من التقدم والرقي ويقف حجر عثرة في سبيل التقدم العلمي، بل على العكس تماماً فقد توفر له الأساس المتين الذي يقوم عليه في العصر الحديث ألا وهو التعليم.

والحقيقة أن العرف إذا واظب الإنسان وداوم علي فعله أصبح عادة لازمة وطبعا دائما وخلقا يصدر عنه تلقائيا دون أن تسبقه عمليات تفكير أو تقدير وخاتمة المطاف للعرف أنه له اعتبار إذا كان علي الشرع دار ويخطئ من يظن أن الوراثة والبيئة وحدهما الأساس الذي نقيم عليه عوامل تكوين الخلق فهناك عامل آخر

---

(١) قديما كانت الشعوب تقضي بقتل من تحدثه نفسه بالخروج علي الجماعة أو من يكتشف حقيقة علمية تعارض ما ألفه الناس أو جاء في الكتاب المقدس حتي قامت النهضة – انظر في ذلك – أسس الفلسفة تأليف الأستاذ الدكتور/ توفيق الطويل ص ١١٨-١٢٥.

(٢) نصب رجال الكنيسة أنفسهم رقباء علي الحركة العلمية والفكرية بكل أنواعها فحرموا، وأباحوا، وطردوا، وعذبوا كل من تسول له نفسه الخروج على سلطانها.

-انظر في ذلك – دروس في تاريخ الفلسفة تأليف الدكتور/ إبراهيم مدكور ص ٨٨-٩٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١.

(٥) الأخلاق بين النظر والتطبيق تأليف الدكتور/ عبد الستار مختار نصار ص ٨٥.

المزاج الشخصي والتكوين النفسي

في هذا العامل تتبدى قضية فكرية تستحق مزيداً من التأمل وهي:

أن التكوين النفسي يميل بالإنسان نحو عوامل فطرية ثلاثة هي:

١- التقليد: وهو ميل فطري قوي وجد في الإنسان بالطبع والفطرة.

٢- الميل إلي المدح والتنفير من الذم والاعتزاز بالتفوق والفخر.

٣- ميل الفرد للاندماج في الجماعة لأن الإنسان مدني بطبعه.... بل إن هذا مشاهد في سائر المجتمعات كالطيور والحيوانات البرية)([١])

وابن خلدون في النص السابق يتأمل الذات الإنسانية ويربطها بالواقع ولكن العجيب بل الأعجب هو: اختلاف أخلاق الأفراد رغم اتحاد البيئة.

وفي موطن الإجابة يرى العلماء إن المزاج الشخصي ينقل أعمق ما في الوراثة من صفات وأقل ما في البيئة من تفاعلات وعليه فإنه يرجع في جانبه الأكبر إلي الوراثة لأن المزاج الشخص هو (مجموعة الخصائص الفسيولوجية التي تؤثر في الخلق)([٢])

أي إن المزاج الشخصي نتيجة الكيفية التي يمتزج بها الجسم مع عناصر تكوينه ولعل أروع ما في المزاج الشخصي هذه الصورة المحسة التي تنقلنا من اللون إلي تكوين شخصية الإنسان أو تنقل إلينا نقلا حسيا هذا المشهد اللوني الذي يؤثر في الخلق، وذلك من خلال تقسيم الأخلاق تبعا للون البشرة:

فالدموي: يمتاز بأنه متفائل ومرح ونشط.

أما الصفراوي: يمتاز بالعنف والصلابة وسرعة الغضب.

أما السوداوي: يمتاز بأنه كثير التأمل، دائم الاكتئاب والتشاؤم.

أما البلغمى: فإنه سطحي وخامل وبليد وشره ([٣]).

ويتوجه العلماء إلي أساس النظرية ليؤكدوا (أن الأساس العلمي لهذه النظرية ضعيف. لأنه يبنى علي أساس العناصر الأربعة التي زعم الفيلسوف "أمبيد وكل" أنها أساس كل شئ في الوجود، وهي: الماء والهواء والتراب والنار، فلا شك أننا نلاحظ شيوع بعض هذه الصفات في هذا الفرع أو ذاك، وأنها تصدق في كثير من الأحيان)([٤]).

وهناك في هذه العوامل التي تكون الخلق – الوراثة، والبيئة والمزاج الشخصي – ظاهرة توقف عندها العلماء بالسؤال:

هل هذه العوامل التي تكون الخلق متماثلة في التأثير؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يمكن النظر إلى الواقع الذي يعيشه العالم فهو منطق علم الأخلاق ورؤيته وأداته جميعا. ومن هنا ارتأى العلماء أن (أثر الوراثة كان معروفا منذ زمن طويل، وإن لم يعرف الناس سببه)([٥]) ولكن لاحظ علماء الأخلاق (أن عامل المزاج الشخصي وعامل الوراثة لهما التأثير الأقوى في تكوين أخلاق البيئات الصحراوية لأن الإنسان يقضي معظم وقته وحيدا)([٦])

أما في المجتمعات المتحضرة التي نعيش فيها فإن تأثير البيئة أقوى حيث تخرج الإنسان من خصوصية الفردية إلي العمومية ومن محدودية الجزئي والآني إلي مطلق الكلي والشامل وبتعبير أوضح فإن الإنسان في المجتمعات

---

(١) الأخلاق بين النظر والتطبيق تأليف الدكتور/ عبد الستار مختار نصار ص ٨٠ ، ٨١.
(٢) دراسات في علم الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٤١.
(٣) دراسات في علم الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٤٢.
(٤) المرجع السابق ص ٤٢.
(٥) فلسفة الأخلاق وأخلاق الإسلام تأليف الأستاذ الدكتور/ المراكبي ص ١٨٥.
(٦) دراسات في علم الأخلاق تأليف الأستاذ الدكتور/ مزروعة ص ٤٣.

المتحضرة (يخضع منذ طفولته لنظم التربية والتهذيب والتعليم ، حيث يعمل المجتمع من خلال نظم التربية هذه علي أن ينشأ الأطفال علي الصورة التي تؤهلهم لها تكوينا تهم النفسية أو أمزجتهم الشخصية)([1]).

ونلاحظ من خلال هذا المبحث – الخلق – أننا لا ننكر أن الإنسان يعيش تحت وطأة عوامل تكوين الخلق – البيئة، والوراثة، والمزاج الشخصي – لكن عوامل تكوين الخلق ليست لزاما بالنسبة للإنسان؛ لأن العقل البشري يجمع الناس على أنه مقياس الصواب والخطأ ، ويؤكد ذلك أولئك العظماء الذين خرجوا علي بيئاتهم – تقاليدها وعوائدها وأعرافها – لإصلاحها، وتقويمها كالمصلحين الذين أعطوا الفكر جانبا كبيرا من التعويض، والأنبياء الذين تركوا علي الإبداع الخلقي ظلالا وارفة من تأثيراتهم العظيمة والعميقة تستعصي علي الطعن والنقد لارتباطها بوحي السماء.

(١) المرجع السابق ص ٤٣.

الفصل الثالث
قابلية الأخلاق للتغير

أولاً: قابلية الأخلاق لتغير وموقف العلماء منها في ضوء الإسلام
ثانياً: الصلة بين الأخلاق والإيمان
ثالثاً: الصلة بين الصلاة والأخلاق
رابعاً: الصلة بين الصوم والأخلاق
خامسا: الصلة بين الحج والأخلاق
سادساً: الصلة بين المعاملات المالية والأخلاق
سابعاً: الصلة بين المعاملات الشخصية والأخلاق

قابلية الأخلاق للتغير وموقف العلماء منها في ضوء الإسلام

ما نعرف قضية من قضايا الأخلاق أثارت من الاهتمام مثلما أثارت تلك القضية – قابلية الأخلاق للتغير – وذلك لأن القضية تعكس فائدة هذا العلم مما يؤكد دائما أن الأخلاق ليست نظريات مفارقة للواقع بل دائما هي الواقع ومحكومة بمنطقه ، ولقد استطعنا مع شيء من المعاناة الفكرية أن نكتشف في الفكر الجاد لعلماء الأخلاق أكثر من دليل علي قابلية الأخلاق للتغير. فلقد كانت القضية ملحة علي علماء الأخلاق، وأجابوا بعد تفكر طويل بأن الأخلاق قابلة للتغير.

يقول مؤسس علم الأخلاق – سقراط – (إن الجهل مصدر الشر وأصل الفساد وأن العلم منبع الخير والصلاح وأن العلم والفضيلة وجهان لعملة واحدة فإذا عمل الإنسان الشر فذلك لجهله طريق الخير. فالعالم عند سقراط يستحيل أن يكون سيء الخلق. والفضيلة في نظره هي العلم والمعرفة. فمعرفة الخير كافية لإثباته)(١).

ونعترف بأن الأخلاق هي التي توضح لنا العلم بالفضيلة وتقوي إرادتنا وتعينها علي التوجه إلي الخير.

يقول "هاربرت"(٢) (إن التعليم وحده كفيل بتهذيب الأمة وتربيتها وأن عقل الإنسان كله مكتسب بالتربية والتعليم، وأن العقل هو جملة ما تحصله من العلوم والمعارف، فهو لهذا ينكر الاستعداد الفطري مطلقا. وعلي هذا تكون القوة المسيطرة علي العلم والمثيرة لحوادثه هي العقل فمن أراد أن يهذب نفسه ويحسن خلقه فعليه بالعلم والعلم وحده)(٣).

ويقول جون ديوى (وعقل الإنسان في تطور مستمر للملاءمة بين الإنسان وبين البيئة التي يعيش فيها وهذه وظيفة الفكر والعقل وهي وظيفة عملية إيجابية نشطة فعاله غايتها صلاح الفرد والجماعة)(٤).

ويقول ليبنتز (سلمني زمام التربية والتعليم وأنا كفيل بأن أغير وجه أوربا)(٥)

ويقول أوجست كونت (إن العالم تحكمه العواطف لا الأفكار)(٦).

ومن هنا فقد كان أوجست كونت يعترف بأننا نجد أناساً علي قدر كبير من الخلق دون أن يدرسوا علم الأخلاق تماما كما نجد نجارا وحدادا وطاهيا دون أن يتعلم النجارة والحدادة والطهي في كتاب.

ويقول ديكارت (بما أن الله لا يخدع فمن المؤكد أنه لا يمنح الإنسان ملكة التمييز بين الخطأ والصواب بحيث لا يخطئ البتة إذا استخدمها كما ينبغي ومع هذا تعلمنا التجربة أننا نقع في أخطاء لا نهاية لها)(٧).

من السهل بعد كل ما قدمنا أن نقبض علي موضوع بحثنا – علم الأخلاق بين التوريث والتعليم – وأن نستشف في غير كثير من الجهد أن الأخلاق قابلة للتعليم والتعديل والتهذيب والإصلاح، وأن كون الله تعالى محكوم – منذ لحظة البدء – بالصيرورة إلى الأخلاق الحميدة مع أيماننا بأن فساد أخلاق البعض معادل موضوعي لوجود الخير والشر، وأن اغتصاب بعض القيم الأخلاقية هو منطق الشر مقابل الخير، وأن علم الأخلاق لا يطمع في اكتساح كل رذيلة في طريقه. والعجيب أننا نجد عالم لا خلق له وصاحب أخلاق لا علم عنده وهذا في القليل النادر وعليه فلا تتعارض هذه الرذائل مع رؤيتنا الجميلة لعلم الأخلاق الذي يطوف حول النفس الإنسانية في محاولة منه للقبض على الرذائل.

فلماذا نصر على تكبيل هذا العلم هنا وهناك ولا نطلقه في فضاءات جديدة للعلم والتعلم؟

ألم تحقق الأخلاق هذه الصيرورة الفكرية الجميلة للفضيلة ؟

ألم تؤكد الفلسفة النهائية لعالم النفس الإنسانية أنها مجبولة علي كره الرذيلة آبية علي كشف عورتها.

---

(١) تهافت الفلاسفة عن درك الحقيقة المطلقة تأليف/ محمود أبو الفيض المنوفي ص ٣٩٢
ونظر – الأخلاق والمجتمع تأليف الدكتور/ ذكريا إبراهيم ص ٩.

(٢) جان فريدريك هاربرت المأني الجنسية (١٧٧٢ – ١٨٤١) خلف أستاذه " كانت" في كلية كونجسبرغ.
انظر – تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ٣٥.

(٣) المرجع السابق ص ٣٥.

(٤) الحرية والثقافة تأليف/ جون ديوي ص ي: ك.

(٥) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ٣٥.

(٦) تأملات في فلسفة الأخلاق تأليف الدكتور/ منصور رجب ص ٣٥.

(٧) أساس المعرفة والأخلاق تالفي ديكارت ص ١٥٣.

قال تعالي: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١)

وأخيرا نقول: أننا نطفئ في البحث إمكان المعرفة اليقينية حين نضعه في مواجهة فريقين –الأخلاق بين التوريث والتعليم – وأدلة كل فريق ممكنة الترجيح..... ثم لا شيء..... أما حين نضع القضية في ضوء الإسلام فإننا نكون قد أعطينا القضية حقها من المعرفة اليقينية وللفكر نوعا من التعامل الفاعل مع قضية جوهرية في الأخلاق وليس التواطؤ علي أدلة فلسفية مسطحة – الأخلاق تورث –

من هنا نؤكد أن ما يعنينا أساسا في الوصول للحقيقة هو موقف النصوص الشرعية من القضية لأننا معها نمتلك الرؤية اليقينية للقضية.

أما عن موقف القران الكريم من الأخلاق **أولا** ومن إمكانية تغيرها **ثانيا**.

فنقول - في إيجاز شديد -: لقد أرسى القرآن الكريم في البشرية الصلة بين الأخلاق والدين وللتدليل علي أن الأخلاق من صلب الدين ينبغي أن نقرر الآتي:

(١) سورة طه آية ١٢١، ١٢٢.

الصلة بين الإيمان والأخلاق

لقد أعطي القرآن الكريم للأخلاق المنزلة العليا حين ربطها بمدح رسوله الخاتم (ﷺ).

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١).

ولنكن علي وعي بقول الله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٢).

ولنحاول أن نفهم من ذلك ليس مجرد ذكر أركان الإيمان فقط وإنما الصلة الوثيقة بين أركان الإيمان وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾(٣) أعني من فعل هذه الأركان فهم الذين (صدقوا الله في إيمانهم وحققوا قولهم بأفعالهم)(٤)

وما تؤكده الحقائق أن القرآن الكريم ربط بين الإيمان بالله تعالى والأخلاق. قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾(٥)

وما تؤكده الحقائق القرآنية أيضا أن الله تعالى ربط بين الأخلاق والعبادات – وفي إيجاز شديد أيضا نذكر –

الصلة بين الصلاة والأخلاق

قال تعالي: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾(٦)

توضح الآية القرآنية الكريمة طبيعة الالتزام بالصلاة وما تشتمل عليه من ترك الرذائل، يقول الإمام الحافظ ابن كثير(الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات. أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك)(٧)

الصلة بين الزكاة والأخلاق

تظهر القيمة الحقيقية لدور الزكاة في تطهير النفس الإنسانية من السيئات

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨).

فقوله تعالى ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ إشارة إلى (مقام التخلية عن السيئات وقوله تعالى:

﴿ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ إشارة إلي مقام التحلية بالفضائل والحسنات)(٩)

ولا تتخلى القيمة الحقيقية للزكاة عن الأخلاق حتى ولو كان ذلك لأي حساب.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠).

الصلة بين الصوم ولأخلاق

ينبغي أن لا ننظر إلي الصوم علي أنه مجرد الإمساك عن شهوتي البطن والفرج فقط بل ينبغي أن ننظر إليه على انه تضييق لمسالك الشيطان.

---

(١) سورة القلم آية ٤.
(٢) سورة البقرة آية ١٧٧.
(٣) سوره البقرة آية ١٧٧.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القران للطبري (٣ /٣٥٦).
(٥) سورة النساء آية ٣٦.
(٦) سورة العنكبوت آية ٤٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٦/٢٨٠).
(٨) سورة التوبة آية ١٠٣.
(٩) التحرير والتنوير تأليف/ الطاهر بن عاشور (١٠ /١٩٦).
(١٠) سورة التوبة آية ٧٩.

قال تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ([1]).

وإذن (فالتقوى تعبير في هذا السياق عن آثار أخلاقية لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان)([2]).

الشيطان)([2]).

(١) سورة البقرة آية ١٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٩٧/١).

الصلة بين الحج والأخلاق

مناط الثواب في الحج مرتبط بالأخلاق قال (ﷺ) (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)([1]).

وقال تعالي: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ([2])

وفي مجال ذبح الأضاحي والهدي والفدية لا ينظر الله تعالى إلى الفعل المحسوس – الذبح – إنما يطالب جل وعلا بالتقوى.

قال تعالي: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ([3])

فإذا توفر للإنسان هذا الأساس – التقوى – فليكن ملتزما بها أخلاقيا كما يريد الله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ **([4]).**

كما جعل الله تعالى الأخلاق أساسا في المعاملات، وعن صلة الأخلاق بالمعاملات تتبدى قضية فكرية تستحق مزيداً من التأمل لأن العلماء قسموا المعاملات إلي قسمين:

أ: مالية. **ب: شخصية.**

المالية: تتعلق بالبيع والشراء ونحوهما من الأمور المالية.

الشخصية: تتعلق بالصلة بين الرجل والمرأة من الخطبة والزواج وما يلحق بذلك من أحكام الأحوال الشخصية.

ونعتقد بأن هذا- ارتباط المعاملات بالأخلاق – جميل أروع ما يكون الجمال لأنه يثير في النفس الإنسانية عديدا من مشاعر الحب والواجب، والحق والخير والجمال..... الخ. إيمانا بأن الأخلاق ليست في واد والمعاملات في واد آخر بل المعاملات محكومة بمنطق الأخلاق.

ويمكن النظر إلي ذلك من خلال:

---

(١) رواه البخاري حديث رقم (١٥٢١).

(٢) سوره البقرة آية ١٩٧.
(٣) سورة الحج آية ٣٧.
(٤) سورة الحج آية ٣٠.

الصلة بين المعاملات المالية والأخلاق

التشريع الإسلامي جدل المعاملات المالية مع الأخلاق فقد حرم الغش والاحتكار، والربا، والقمار.....الخ مما دل عليه التشريع الإسلامي.

قال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ (١)

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (٢).

وفي السنة قال (ﷺ) (لا يبيع بعضكم علي بيع بعض)(٣)

والظاهر بل الواضح بل المؤكد أن ذلك النهي عم قد يترتب عليه من إثارة للأحقاد والضغائن وفساد للعلاقات والصلات.

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢.
(٢) سورة المطففين آية ١-٣.
(٣) رواه مسلم حديث رقم (٣٥٢٠).

الصلة بين المعاملات الشخصية والأخلاق

التوترات الأسرية تفضي إلي سلام بالأخلاق والمشاكل تنتهي إلي تناغم رحب بالأخلاق.

قال تعالي: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ([1])

ولأن الله تعالى وحده هو الذي يستطيع أن يحمل عن الإنسان عبء هموم كره الرجل لزوجته وأشواقه جميعا. علي نحو يخفف وطأة هذا الكره وذلك بنقل أعمق ما في الإحساس وأرهف ما في العاطفة من خلال توافق مع الخير المعطى من الله تعالى وليس من خلال رؤية الإنسان.

قال تعالى: ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾([2]).

ويقول الرسول (ﷺ) (لا يفرق مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر)([3]).

وهنا يلفت الرسول الكريم (ﷺ) النظر إلى المحاسن وعدم التركيز علي المساوئ.

---

(١) سورة النساء آية ١٩.

(٢) سوره النساء آية ١٩.

(٣) رواه مسلم حديث رقم (٢٦٧٢).

الصلة بين المعاملات الاجتماعية والأخلاق

حوار الأضداد في النفس الإنسانية من شجاعة وجبن، وكرم وبخل، وصدق وكذب.....الخ وجهه الله تعالى إلى الخير وحث النفس الإنسانية علي التعاون علي الخير والتقوى، ونهاها عن التعاون على الإثم والمعصية.

قال تعالي: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١)

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٢)

ألم نقل إن الله تعالى أعطى للأخلاق الدور الفاعل في التشريع الإسلامي فهي الأساس في جميع التشريعات السماوية، من هنا أصبحت الأخلاق رمزا لأشياء إيمانية كبيرة وأصبحت الفضيلة أثرى وأعمق مع التشريع الإسلامي وفي حالة حضور دائم لا يغيب.

ألسنا نؤمن بأن الله تعالى ما دام قد ربط الأخلاق بجميع التشريعات السماوية فلا بد أنها قابلة للتعليم والتعديل والإصلاح والتهذيب.

ويظهر بوضوح عدم القول بتوريث الأخلاق من خلال آيات القرآن الكريم

قال تعالى: حكاية عن نوح (عليه السلام) وابنه ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾(٣)

وقال تعالي: حكاية عن إبراهيم (عليه السلام) و(أبيه)(٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (٥)

وقال تعالى: حكاية عن إخوة يوسف

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾(٦)

وقال تعالى: حكاية عن موسى والخضر عليهما السلام ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾(٧)

وقال تعالي حكاية عن قوم لوط

(١) سورة المائدة آية ٢.
(٢) سورة النساء آية ٣٦.
(٣) سورة هود آية ٤٢.

(٤) خلاف بين علماء التفسير علي اسم أبي إبراهيم (عليه السلام).
(٥) سوره الأنعام آية ٧٤.
(٦) سورة يوسف آية ١٥.
(٧) سورة الكهف آية ٨٠.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(١)

وقال تعالى: حكاية عن أهل الكهف.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾(٢)

وبهذا وغيره من الآيات القرآنية الكريمة نتأكد من القول بأن الأخلاق قابلة للتغيير.

وليت يحرص اللاأخلاقيون على أن يقولوا علما وليس مجرد مغالطات فخطؤهم أوضح من أن يكون موضعا لجدال.

ولا نحسب أننا في حاجة إلي تأكيد يقينية النصوص الشرعية – لأنها وحي الله المعصوم – لكننا في حاجة إلى تنوير الآخر حتي يرتفع بمضمون قضاياه إلى بكارة الإبداع القرآني المليء بحس الإنسانية الصادق.

قال تعالي: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف آية ٨٢.

(٢) سورة الكهف آية ١٣.

(٣) سوره الملك آية ١٤.

الخاتمة

ما أرى قضية من قضايا الأخلاق أهم من هذه القضية وهي – ربط الأخلاق بالتعليم – فقد شغلت هذه القضية عصور التاريخ الأخلاقي وانبرى لتأكيد كل اتجاه من الاتجاهات فرقاء متعددون و نعتقد أن الحق مع أولئك الذين ربطوا بين الأخلاق والتعليم لأن ما تؤكده الحقائق هو:

أولا: الذي يعد منطقيا هو القول بأن الأخلاق قابلة للتعديل والإصلاح والتهذيب ومنطقية الربط والتعليل تتأتى من خلال التعليم. ومن قال غير ذلك فقد أساء التفكير أو الاستدلال.

ثانيا: الأخلاق علم معياري لأنه مقياس للسلوك وعلم وصفي يؤكد علي طبيعة الإخلاص والالتزام بالطريق الذي وصفه علماء الأخلاق للفضيلة.

ثالثا: المذاهب الأخلاقية التي لا تقيم الأخلاق علي أساس دين سماوي يكون الالتجاء إلى الإرادة الطيبة فقط إفلاسا للعقلانية لأن أي عمل يجب أن يكون.

(أ) ليرضى الله تعالى عنه.

(ب) لينفع الناس في اعتقاد صاحبه.

رابعا: المعرفة دعوى نحتكرها لبلوغ الحقيقة. والحقيقة التي ينبغي أن نناضل تحت رايتها كثيرا هي الالتزام بتدريس علم الأخلاق لأننا إذا ضيقنا الخناق علي تدريس هذا العلم ستظهر للبشرية صعوبات لا نهاية لها.

خامسا: يبدو لي أنه من الضروري أن نحلل الواقع الأخلاقي لكي نفهم أنه إذا وجد صواب وخطأ في الفكر البشري وحق وباطل في تعاملنا مع الشريعة فذلك على نحو ما توجد ورود بيضاء، و ورود حمراء، و ورود سوداء. وعلي نحو ما توجد إرادة طيبة وإرادة سيئة وإرادة شريرة.

سادسا: علم الأخلاق الإسلامي هو الضرورة الأساسية لآي منبع قيمي أصلي.

سابعا: علم الأخلاق المتغلغل في ثنايا كل العلوم هو الذي يحتويها من غير أن يخنقها.

وأخيرا: نعترف بأن حصاد رحلتنا مع بحثنا – ربط الأخلاق بالتعليم – يمكن أن يصبح بحجم طموحنا متي عرفنا طريقنا إلي عالمه وأخلصنا في معاناة كشف التجربة الإنسانية التعسة بسبب الفصل بينها وبين الأخلاق وأخلصنا في كشف أهمية تدريس هذا العلم. وما يجيش به من قيم إنسانية باقية..... وهذا هو دورنا الحقيقي..... أما تدريس الفلسفات اللاأخلأفية التي تثير قضايا من نوع مختلف فليست بأهم من هذا العلم – الأخلاق الإسلامية - .

علي أية حال فقد حاولنا أن نضيء شمعة واحدة – ربط الأخلاق بالتعليم - وذلك أجدى من أن نمارس هواية لعن الظلام !!!

دكتور/ مبروك عبد العزيز عبد السلام

الثلاثاء ٢١ صفر ١٤٣٢ هـ

٢٥ يناير ٢٠١١ م

أهم المصادر والمراجع

١. القران الكريم.

٢. كتب السنة المطهرة.

٣. إحياء علوم الدين / الغزالي / طبع الحلبي ١٩٣٩م.

٤. الأخلاق / أحمد أمين / و أمين موسي قنديل طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٠م.

٥. الأخلاق بين النظر والتطبيق / د. عبد الستار مختار نصار / ط مؤسسة الشيما القاهرة ١٩٩٣م.

٦. الأخلاق والمجتمع / د. زكريا إبراهيم / ط الدار المصرية للتأليف و الترجمة والنشر / ١٩٦٦م.

٧. أســس الفلسفة / د.توفيق الطويل / ط دار النهضة العربية ١٩٧٩م.

٨. أمثال الحديث / للرامهرمزي حققه وعلق عليه د/ عبد العلي عبد الحميد ألأعظمي الناشر الدار السلفية بالهند.
٩. تاريخ الحضارة الإسلامية / بار نولد / ترجمة حمزة طاهر / طبع دار المعارف بمصر.
١٠. تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العلمية / د. أبو بكر ذكري / ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٥٨م.
١١. تأملات في فلسفة الأخلاق / د. منصور رجب / نشر مكتبية الأنجلو ١٩٦١م.
١٢. التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور / دار سحنون – تونس / ١٩٩٧م.
١٣. التعريفات للجرجاني (علي بن محمد) دار الريان للتراث / بدون تاريخ.
١٤. تفسير البغوي المسمي معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود القراء البغوي الشافعي. إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن العك ، ومروان سوار ط. دار المعرفة – بيروت – لبنان.
١٥. تفسير القرآن العظيم / للإمام أبي الفداء الحافظ بن كثير القرشي الدمشقي / ط دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
١٦. تهافت الفلسفة عن درك الحقيقة المطلقة / محمود أبو الفيض المنوفي / ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٠م.
١٧. تهذيب الأخلاق / لابن مسكويه / طبع الحلبي ١٩٤٦م.
١٨. جامع البيان في تأويل آي القرآن / أبي جعفر محمد بن جرير الطبري تحقيق طبعة دار الفكر.
١٩. الحرية والثقافة / جون ديوى / ترجمة أمين موسي قنديل ١٩٤٥م.
٢٠. خلاصة البدر المنير في تخريج كتاب الشرح الكبير للرافعي المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الناشر مكتبة الراشد الرياض ط ١ سنة ١٤١٠هـ تالي تلخيص المتشابه أحمد بن علي بن ثابت أبي بكر الخطيب البغدادي 2 مجلد تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، أبو حذيفة أحمد شقيرات دار الطبعة الصميعي الأولى 1417هـ - ١٩٩٧ م.
٢١. دراسات في علم الأخلاق / أ.د. محمود محمد مزروعة / ط مكتبة الرياض ١٩٨٠م.
٢٢. دروس في تاريخ الفلسفة / د. إبراهيم بيومي مدكور ط مطابع مدكور ١٩٥٤م.
٢٣. الذريعة إلى مكارم الشريعة / الراغب الأصفهاني / تحقيق د. أبو اليزيد العجمي / دار الوفاء ط٢ ١٩٨٧ م.
٢٤. صحيح البخاري / محمد بن إسماعيل البخاري / ط دار ابن كثير ١٤١٤ه عدد الأجزاء ٧.
٢٥. صحيح مسلم / مسلم بن حجاج / المحقق أبو قتيبة / ط دار طيبة ١٤٢٧ ه عدد الأجزاء ٢.
٢٦. العقيدة الإسلامية والأخلاق / د.محي الدين الصافي، د.عبد الفتاح عبد الكريم / طبع الأزهر الإدارة المركزية ١٩٩١م.
٢٧. العقيدة و الأخلاق / أ.د. محمد عبد الرحمن بيصار / ط مكتبة الأنجلو ١٩٦٨م.
٢٨. الفردوس بمأثور الخطاب /للديلمي /الناشر: دار الكتب العلمية سنة النشر: ١٤٠٦ - ١٩٨٦ عدد المجلدات ٦ رقم الطبعة: ١.
٢٩. فلسفة الأخلاق في الإسلام / د.محمد يوسف موسي / الخانجي / مصر ط٣ ١٩٦٣م.
٣٠. فلسفة الأخلاق في الإسلام / محمد جواد مغنية / ط دار العلم للملايين ١٩٧٧م.
٣١. فلسفة الأخلاق و أخلاق الإسلام / أ.د. عبد الرحمن محمد المراكبي / ط١ ٢٠٠٧م.
٣٢. لسان العرب / لابن منظور "جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري" / ط بيروت ١٩٦٥م.
٣٣. مدخل إلى علم النفس / إعداد د. هشام صقر / ط القاهرة دار السلام ألحديثه ٢٠١٠.
٣٤. مسند الشهاب/ للقضاعي حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي / ط ٢ دار الرسالة.
٣٥. المعجم الفلسفي / د. مراد وهبه / ط دار الثقافة الجديدة ١٩٧٩م.

٣٦. المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية / الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٩م.
٣٧. المعجم الوجيز/ مجمع اللغة العربية.
٣٨. مقدمة ابن خلدون / طبع دار إحياء التراث العربي.
٣٩. المنطق / لجون ديوي / ترجمة د. ذكي نجيب محمود / ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول: علم الأخلاق	٩
تعريف علم الأخلاق في اللغة	١١
تعريف علم الأخلاق في الاصطلاح	١٥
التعريف المختار لعلم الأخلاق	١٧
اعتراض علي التعريف المختار والرد عليه	١٧
موضوع علم الأخلاق	١٩
فائدة علم الأخلاق ووجه الحاجة إليه	٢٢
تقسيم علم الأخلاق إلى نظري وعملي	٢٤
الفصل الثاني: الخلق	٢٧
كيفية تكوين الخلق	٢٩
الوراثة والبيئة	٣١
الوراثة	٣١
البيئة	٣٧
سلطة العرف وقيمته	٤٥
المزاج الشخصي والتكوين النفسي	٤٧
الفصل الثالث: قابلية الأخلاق للتغير	٥١
قابلية الأخلاق للتغير وموقف العلماء منها في ضوء الإسلام	٥٣
الصلة بين الإيمان والأخلاق	٥٧
الصلة بين الصلاة والأخلاق	٥٨
الصلة بين الزكاة والأخلاق	٥٨
الصلة بين الصوم والأخلاق	٥٩
الصلة بين الحج والأخلاق	٦٠
الصلة بين المعاملات المالية والأخلاق	٦٢
الصلة بين المعاملات الشخصية والأخلاق	٦٣
الصلة بين المعاملات الاجتماعية والأخلاق	٦٤
الخاتمة	٦٧

المصادر والمراجع	٦٩
فهرس الموضوعات	٧٣